قالت: ويرمي سعداً رجلٌ من المشركين من قريش يقال له: ابن العرقة بسهم له، فقال: خذها وأنا ابن العرقة، فأصاب أكحله، فقطعه فدعا الله عزّ وجلّ سعد، فقال: اللّهمّ لا تمتني حتى تقرّ عيني من قريظة، وكانوا حلفاءه ومواليه في الجاهلية، فرقى كلمه)[1]

كان سعد يعاني من جرحه، ومازال يعاني حتى بعد توقف النزيف، لكن جرحه الآخر الذي لا يندمل ولا يبرأ هو ذلك الجرح الذي فتحه يهود بني قريظة بخيانتهم لله ورسوله، ونقضهم العهد وهم الذين يعيشون في ظل دولة الإسلام آمنين مطمئنين.

هذه هي الحرب الثانية، والخيانة الثانية التي يطعنون بها رسول الله ﷺ وأصحابه، لكنها الأشدّ، لدرجة أنهم جعلوا النبي ﷺ في حالة من القلق جعلته يبحث عن رجل يتوجّه نحو حصن بني قريظة ليرصد آخر تحرّكاتهم. وهذه هي المرة الثالثة التي يفعلها ﷺ، ومرة ثالثة يُشرق الزبير، فيكسوه النبي ﷺ لقباً بعد عودته.. لقباً يتميّز به بين أصحابه ﷺ.

لقب الزبير

يذكره جابر، فيقول: (اشتدّ الأمر يوم الخندق، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتينا بخبر بني قريظة؟ فانطلق الزبير، فجاء بخبرهم، ثم اشتدّ الأمر أيضاً «ثم ندب الناس، فانتدب الزبير.

ثم ندب الناس، فانتدب الزبير»، فذكر ثلاث مرات، قال رسول الله ﷺ: إن لكل نبي حوارياً، وإن الزبير حواريي)[2]

أي صاحبي النقي أو وزيري، والزبير يستحق ذلك بعد جهده وجهاده.. بعد أن فدى النبي ﷺ وأصحابه بروحه، ففداه ﷺ بأمّه وأبيه، وتجدّد التماهي بين القائد وجنده في أشدّ لحظات كتابة التاريخ والبطولات، وقدم الزبير للمرّة الثالثة تقريراً

---

(١) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة فسندها ضعيف لأنها من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عند أحمد ٦-١٤٢ وعمرو يحتاج إلى متابعة لقول الحافظ: مقبول أي عند المتابعة، ويشهد لبقية الحديث ما عند البخاري وابن إسحاق وغيرهما.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٢٨٤٧) وأحمد (٣١٤/٣) واللفظ له.

يؤكد تورط يهود بني قريظة في المعركة والحصار، لكنهم أجبن من أن ينزلوا إلى ساحة العراك، لذلك فضّلوا الانتظار، فقد تنجح عملية اقتحام المدينة. عندها يسهل الانقضاض على محمد ﷺ وعلى من مع محمد. لكن الحصار طال، والانتظار طال، واليهود تعلم أن هذا المحاصر نبي، وهناك داخل السور رجال يؤكّدون لمن حولهم من اليهود أن هذا هو النبي المنتظر.

كان هناك أكثر من ثلاثة رجال يحاولون إقناع من حولهم أن محمداً ﷺ نبيّ، لكن يهود تعاند، واليهود لها تاريخ دموي مع أنبياء سابقين من اليهود أنفسهم، حيث قاموا باغتيال عددٍ منهم، فما المانع أن يكون محمد ﷺ ضمن قائمة من حكم عليهم بالإعدام لدى أحبارهم..؟ ولم يقتصر خبثهم على هذا التفكير، فاحتمال انتصار المسلمين وارد، والمعجزات قد تأتي في أي وقت، وفي أي مكان، لذلك قامت اليهود بمبادرة تستدرج فيها النبي ﷺ.

قامت بدور العميل المزدوج، حتى تأمن جانب المسلمين في حالة انتصارهم، وإن كان انتصارهم بعيداً.. بعيداً في ظل هذا الحصار والجوع القاتلين، لكن اليهود تخطّط لأسوأ الاحتمالات، فماذا فعلت؟

خيانة ثالثة لليهود

والخيانة تشكل نسبة لا بأس بها من دمائهم وعروقهم. فاجتمع أحبارهم وزعماؤهم، وقرّروا بعث رسول إلى النبي ﷺ.. يظهرون فيه أنهم معه في هذه المعركة، وأنهم جاهزون لأي إجراء يتّخذ ضدّ قريش وغطفان، وقدّموا الدليل على ما يدّعون.

تقول عائشة رضي الله عنها إن رسول الله ﷺ قال: (إن اليهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجلاً رهناً من قريش وغطفان من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم)[1]

قالوا ذلك وكأن النبي ﷺ متعطّش للدماء.. أيّ دماء.. وكأنه يستبيح أي شيء من أجل الوصول إلى هدفه.. كانوا يريدون إشراك النبي ﷺ والمؤمنين في خستهم تلك.

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٣-٤٤٧: حدثنا يزيد بن رومان عن عروة عن عائشة. يزيد مولى آل الزبير تابعي ثقة، التقريب ٦٠١، وشيخه، إمام ثقة.

هل هذا الفعـــل الحقير، وهذه النفوس المنحطة يمكن أن تكون لقوم يدينون بدين ســـماوي، ويزعمون أن لديهم كتاباً منزلاً من عند اللـــه بذلك..؟ إن الخيانة هي أهون شيء في قائمة ألقاب اليهود وصفاتهم.

أدرك ﷺ أن هؤلاء القوم لن يتورعوا عن فعل أي شيء، وهدم أي مبدأ، وتجاوز أي مقدس، وانتهاك أي محرم من أجل أحقادهم، لذلك قرر أن يسقيهم من الكأس الذي ســـقوه منه.. قرر ﷺ إطلاع قريش وغطفان على غـــدر قريظة بهم، وذلك عن طريق رجل يشدك ويثيرك عندما يتكلم، ويؤثر في سامعيه.

تقول عائشة رضي الله عنها: (كان نعيم رجلاً نوماً، فدعاه رسول الله ﷺ فقال: إن اليهود قد بعثت إلي: إن كان يرضيك عنا أن تأخذ رجالاً رهناً من قريش وغطفان، من أشرافهم، فندفعهم إليك، فتقتلهم؟ فخرج من عند رسول الله ﷺ فأتاهم، فأخبرهم بذلك. فلما ولى نعيم، قال رسول الله ﷺ: إنما الحرب خدعة)[1]

وقريش تعلم أن النبي ﷺ لا يكذب، وتحقق للنبي ﷺ ما أراد فتم عزل بني قريظة عـــن قريش وغطفان، وانكســـر أحد أضلاع مثلث الأحـــزاب، فتزعزعت ثقة الأحزاب بأحلامهم وجيشهم، وأصبحت الهزيمة عندهم قابلة للاحتمال، وبدأت بوادر استجابة الله لدعاء سعد بن معاذ الذي حاول ﷺ علاجه.

يقـــول جابر بن عبـــد الله: (رمي يوم الأحزاب ســـعد بن معـــاذ، فقطعوا أكحله، فحســـمه رســـول الله ﷺ بالنار، فانتفخت يده، فحسمه أخرى، فانتفخت يده، فنزفه، فلما رأى ذلك، قال: اللهم لا تخرج نفســـي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة)[2].

استجاب الله لسعد بن معاذ، فأي مصير ينتظر بني قريظة..؟ استجاب الله دعاء سيد الأنصار، فهل يستجيب الله لـ:

---

(١) سند صحيح وهو الحديث السابق.

(٢) ســـنده صحيح رواه أحمـــد ٣-٣٥٠ حدثنا حجين ويونس قالا: حدثنا الليث بن ســـعد عن أبي الزبير عن جابر. ظاهر هذا الســـند الضعف لأن أبا الزبير مدلس وقد عنعن، لكن ذلك لا يضر في هذه الحالة لأن الراوي عن أبي الزبير هو الليث بن ســـعد وقد أعلم له أبو الزبير ما ســـمعه من جابر فرواه عنه. التهذيب ٩-٤٤٢ وحجين ثقة. التقريب - ١٥٤.

الذي حاصره الكفر من كل مكان، وطال عليه الحصار، وسيطر الخوف على كل شبر في المدينة، وصار الطفل والمرأة والرجل يخشون على أنفسهم إذا خرجوا لقضاء حاجة..اشتد البرد والشتاء والجوع، وبلغت الحال كما وصف الله في القرآن: ﴿ إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا ۝١٠ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ۝١١ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ۝١٢ وَإِذْ قَالَت طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا هِىَ بِعَوْرَةٍ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ۝١٣ وَلَوْ دُخِلَتْ عَلَيْهِم مِّنْ أَقْطَارِهَا ثُمَّ سُئِلُوا۟ ٱلْفِتْنَةَ لَـَٔاتَوْهَا وَمَا تَلَبَّثُوا۟ بِهَآ إِلَّا يَسِيرًا ۝١٤ ﴾[1]

هذا هو الوضع الآن، وهذه هي المدينة كالطفل الخائف.. طيبة خائفة، والرعب يطل عليها من رؤوس الجبال، وشقوق الأبواب، ومن بين النخيل.. طيبة قد احتل معظمها والمشركون يستعدون الآن لشن هجوم شرس على باقيها، للقضاء على هذا الملل والانتظار.. للقضاء على محمد ﷺ وأصحابه. وبدأ الهجوم في ظهيرة أحد الأيام الباردة، فتصدى له المسلمون، وكان ﷺ يمثل جيشاً على إحدى مداخل الخندق.. يحميه ويذود عنه، ويفتك بمن يقتحمه، حتى صدهم عن ذلك الثغر، وقد بقي ﷺ على ذلك المدخل من بعد صلاة الظهر إلى أن توارت الشمس وغابت.

يقول علي رضي الله عنه: (إن رسول الله ﷺ كان يوم الأحزاب قاعداً على فرضة من فرض الخندق، فقال: شغلونا عن الصلاة الوسطى حتى غربت الشمس، ملأ الله قبورهم وبيوتهم ناراً)[2].

وها هو أبو بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة مشغولون عن الصلاة بقريش ومن معها. لقد ذهب وقت صلاة العصر، ودخل المغرب وهم يحاربون..

---

(١) سورة الأحزاب: الآيات ١٠ - ١٤.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم (الدليل لمن قال.. كتاب المساجد) والبيهقي (٤٤٣/٣) واللفظ له.

ها هو عمر قد استشـاط غضباً على أولئك الوثنيين (عمر بن الخطاب جاء يوم الخندق بعدما غربت الشـمس، فجعل يسـب كفار قريش، قال: يا رسول الله، ما كدت أصلي العصر حتى كادت الشمس تغرب.

قال النبي ﷺ: والله ما صليتها.

فقمنـا إلـى بطحان، فتوضأ للصـلاة وتوضأنا لها، فصلى العصـر بعدما غربت الشمس، ثم صلى بعدها المغرب)[1] في ذلك الوادي المسمى (بطحان) وحول الخندق كان الليل إذا أقبل.. أقبل مع الليل برد شديد، وعندما تشرق الشمس تشرق معها المنايا.

في أحد الأيام أشـرقت الشـمس والمعركة، وحميت المعركة وتأجـج لهيبها، ولم يستطع النبي ﷺ والصحابة الصلاة من شدة القتال، فخرج وقت صلاة الظهر والعصر والمغرب، ولم تهدأ المعركة إلا بعد دخول صلاة العشاء.

يقول أبو سـعيد الخدري: (حبسـنا يوم الخندق عن الظهر، والعصر، والمغرب، والعشاء. حتى كفينا ذلك، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿وَكَفَى ٱللَّهُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلْقِتَالَ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾﴾ فقام رسـول اللـه ﷺ، فأمر بلالاً فأقام، ثم صلى الظهر، كمـا كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام فصلـى العصر كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام المغرب، فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك، ثم أقام العشاء، فصلاها كما كان يصليها قبل ذلك)[2]

هكـذا بلغ الحصار بالنبـي ﷺ وأصحابه.. لـم يجدوا حتى دقائـق قليلة لأداء الصلوات في أوقاتها.

ماذا يفعل ﷺ وسط هذا الخوف والجوع..؟ وسط هذا الزلزال..؟ لم يجد وسيلة مباحة إلا استخدمها، ولم يبق أمامه وأمام أصحابه سوى الدعاء.. (دعا رسول الله ﷺ على الأحزاب فقال: اللهم منزل الكتاب، سريع الحساب، أهزم الأحزاب، اللهم اهزمهم وزلزلهم)[3]

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٥٩٦) ومسلم -كتاب المساجد.

(٢) سـنده صحيح رواه أحمد ٣ – ٢٥ وغيرهم من طرق عن ابن أبي ذئب ثنا سـعيد بن أبي سـعيد عن عبد الرحمن بن أبي سعيد عن أبيه. فسعيد المقبري تابعي ثقة من رجال الشيخين ٢٣٦ وشيخه ثقة ٣٤١ وابن أبي ذئب واسمه محمد بن عبد الرحمن ثقة ثبت فاضل.

(٣) حديث صحيح رواه البخاري ٣- ١٣٦٢.

دعا دعاء المكروب.. المحتاج، وما كان الله ليذر نبيه وعباده الصالحين في همومهم، وقد بذلوا كل جهدهم وطاقتهم له، ومن أجل رضاه سبحانه.

استجاب الله دعاء نبيه

ها هي طلائع الهزيمة تقترب نحو الأحزاب دون أن يشعروا.. بعث الله جيشاً لا يقهر نحو أعدائه.. بعث الله الريح والبرد وجنوداً لا يرونها.. وكان بالنسبة للمؤمنين امتحاناً وتمحيصاً وتكفيراً، وقد أخرج البرد بقايا المنافقين من صمتهم، فعادوا يعتذرون من النبي ﷺ للعودة إلى منازلهم.

فأذن لهم، وبقي هو وأصحابه متجمدين من شدة البرد لا يقوون على الحركة ولا القتال، وهاجت الريح في معسكر الوثنيين فأطفأت نارهم وأنوارهم، واقتلعت خيامهم، وقلبت قدورهم، وملأت أنوفهم وعيونهم وأفواههم بالتراب والهزيمة. أما البرد فقد أعجزهم عن الحركة، وتحول معسكرهم إلى ساحة كبيرة من النفايات والفوضى والرعب.. البرد والجوع والخوف ينتقل من المدينة.. يعبر الخندق كوحش لا يطاق، ليتحول الأحزاب إلى أكوام.. إلى ركام من الفشل، فيتفرق شملهم، وتنهار أحلامهم أمام أعينهم.. تتطاير مع الريح والغبار.. فماذا سيفعلون..؟ وماذا فعل ﷺ مع أصحابه الذين مستهم الريح ومسهم البرد والجوع..؟

قرر النبي ﷺ السماح لأصحابه بالعودة إلى بيوتهم، فقد جاء نصر الله بريح وجنود لا يراها البشر، فعاد من أحب العودة منهم، وبقي من بقي، فقد كفى الله المؤمنين القتال.

وفي أشد ساعات الريح والبرد.. كان ﷺ يستدفئ بمناجاة حبيبه سبحانه.. كان يتمتع بصلاته، ويريح نفسه بها.

قيل لذلك الشاب الذي يشارك لأول مرة.. قيل لعبد الله بن عمر بن الخطاب: (أين كان رسول الله ﷺ يصلي يوم الأحزاب؟ قال: كان يصلي في بطن الشعب، عند خربة هناك، ولقد أذن رسول الله ﷺ في الانصراف للناس، ثم أمرني أن أدعوهم،

فدعوتهم)[1] لكنهم لم يعودوا، ولم يستطيعوا العودة من شدة البرد، وكان لعدم عودتهم قصة يحكيها ذلك الشاب أيضاً، فقد أرسله خاله الصوام القوام عثمان بن مظعون، ليحضر بعض الطعام ولحاف، عله يذهب ما به وبأصحابه من ريح وجوع وبرد.

يقول: (أرسلني خالي عثمان بن مظعون ليلة الخندق في برد شديد وريح إلى المدينة فقال: ائتنا بطعام ولحاف. فاستأذنت رسول الله ﷺ فأذن لي وقال: من لقيت من أصحابي فمرهم يرجعوا. فذهبت والريح تسفي كل شيء، فجعلت لا ألقى أحداً إلا أمرته بالرجوع إلى النبي ﷺ، فما يلوي أحد منهم عنقه. وكان معي ترس لي فكانت الريح تضربه علي، وكان فيه حديد، فضربته الريح حتى وقع بعض ذلك الحديد على كفي فأنفذها إلى الأرض)[2]

وسط هذه العاصفة الباردة كانت الريح معركة أخرى.. أشغلت كل إنسان بنفسه، فصار لا يدري ما حوله ولا من حوله، وخلال هذا الأجواء المرعبة المخيفة كان ﷺ يناجي ربه، الذي أنزل نصره وأرسل ريحه.. كان الجميع مشغولين بأنفسهم، ونبي الله ﷺ مشغول بأمته.. يناجي الجبار ويدعوه لنصرتها، لكن ماذا عن الجهة الأخرى من الخندق..؟ ماذا عن الوثنيين وماذا فعلت بهم الريح..؟

الريح في معسكر الوثنيين

النبي ﷺ يتساءل أيضاً عن أحوالهم، فقد هتف ﷺ بالقلة المحيطين به، ونادى بالتطوع لاكتشاف ما حل بالمشركين، لكنه لم يجد مجيباً. ثم هتف فلم يجبه أحد،

---

(١) رجاله ثقات رواه الطبراني ١٢-٣٦٩: حدثنا محمد بن الحسين الأنماطي حدثنا مصعب ابن عبد الله الزبيري حدثنا عبد العزيز بن محمد، عن عبيد الله بن عمر عن نافع قال قيل لعبد الله.: عبيد الله ثقة ثبت والدراوردي: صدوق، ومصعب صدوق، وهم من رجال التقريب، وشيخ الطبراني سكت عنه الشيخ حماد الأنصاري في البلغة ٢٨٠ ووجدت توثيقه في تاريخ بغداد ٢-٢٢٧ لكن يعكر على صفو هذه السلسلة قول الإمام أحمد: أن الدراوردي ربما قلب حديث عبد الله بن عمر يرويها عن عبيد الله، لكن الراجح أنه لم يقلب، لأنه روى نحو هذا الحديث وهو التالي وقد تابعه إمام ثقة هو ابن وهب.

(٢) سنده قوي رواه ابن جرير ١٠-٢٦٢ حدثنا يونس ابن وهب، حدثني عبيد الله بن عمر عن نافع عن ابن عمر. نافع تابعي ثقة معروف، وعبيد الله ثقة ثبت مر معنا في الحديث السابق، والراوي عنه ثقة ثبت حافظ، وتلميذه ثقة واسمه يونس بن عبد الأعلى بن ميسرة التقريب ٦١٣ والحديث عند الطبراني في الكبير ١٢-٣٦٨ والأوسط (مجمع البحرين - ٥-١٠٨) من طريق الدراوردي عن عبيد الله والحديث شاهد لبعض ما قبله.

وكرر ثالثة، فكانت الريح والبرد هي الإجابة، ولما رأى ﷺ أن التطوع في هذه الساعة صعب.. أصدر أمره لأحد الصحابة، فامتثل على الفور لما أمره به.

هذا الصحابي هو الشاب حذيفة بن اليمان الذي يحدث من حوله عن مهمته تلك الليلة عندما قال له أحد أصحابه: (لو أدركت رسول الله ﷺ، قاتلت معه وأبليت.

فقال حذيفة: أنت كنت تفعل ذلك؟! لقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ ليلة الأحزاب، وأخذتنا ريحٌ شديدة وقرٌّ[1]، فقال رسول الله ﷺ: ألا رجل يأتيني بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يُجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد، ثم قال: ألا رجل يأتينا بخبر القوم جعله الله معي يوم القيامة؟

فسكتنا. فلم يجبه منا أحد. فقال: قم يا حذيفة، فأتنا بخبر القوم. فلم أجد بداً إذ دعاني باسمي أن أقوم. قال: اذهب، فأتني بخبر القوم، ولا تذعرهم علي[2].

فلما وليت من عنده، جعلت كأنما أمشي في حمام[3]، حتى أتيتهم، فرأيت أبا سفيان يصلي[4] ظهره بالنار، فوضعت سهماً في كبد القوس، فأردت أن أرميه، فذكرت قول رسول الله ﷺ: ولا تذعرهم علي[5]، ولو رميته لأصبته، «فذهبت، فدخلت في القوم، والريح وجنود الله تفعل بهم ما تفعل، لا تقر لهم قدراً ولا ناراً ولا بناءً [فحس أبو سفيان أنه دخل فيهم من غيرهم] فقام أبو سفيان فقال: يا معشر قريش: لينظر امرؤ من جليسه.

قال حذيفة: فأخذت بيد الرجل الذي كان إلى جنبي، فقلت: من أنت؟ قال: فلان ابن فلان.

---

(١) أي البرد.

(٢) لا تثيرهم ولا تحركهم، ولا تثر انتباههم.

(٣) أي كأنه يسير في حمام دافئ معجزة من عند الله رغم شدة البرد.

(٤) أي يدفئ.

(٥) لا تثيرهم ولا تحركهم.

ثم قال أبو سفيان: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلك الكراع، والخف[1]، وأخلفتنا بنو قريظة[2]، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح ما ترون، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا، فإني مرتحل. فرجعت إلى رسول الله ﷺ» فرجعت وأنا أمشي في مثل الحمام، فلما أتيته، فأخبرته بخبر القوم، وفرغت، قررت[3]، فألبسني رسول الله ﷺ من فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أزل نائماً حتى أصبحت. فلما أصبحت قال: قم يا نومان[4])[5] فقد أصبحت المدينة وأصبح الملك لله، وأصبح النصر لله ورسوله وللمؤمنين، وخلت الساحة من الأوثان والوثنيين الذين ولوا مدبرين.. تكنس الريح أثارهم ونفاياتهم.

نظر ﷺ إلى ساحة القتال، فحمد الله هو وأصحابه، وذكرهم بنعمة الله عليهم، ومعجزته التي لوت أعناق المشركين وأذلتهم، كما أذلت أعناق مشركين آخرين في زمن غابر جداً.. إنهم قوم النبي الكريم: هود وهم قوم (عاد) فقد نصر الله نبيه هود بريح عاتية آتية من الغرب، ونصر الله محمداً ﷺ بريح عاتية آتية من الشرق، ولذلك يقول ﷺ: «نصرت بالصبا، وأهلكت عاد بالدبور»[6] وقال ﷺ: «لا إله إلا الله وحده، أعز جنده، ونصر عبده، وغلب الأحزاب وحده، فلا شيء بعده»[7] وقد حول ساحة المؤمنين إلى نصر وربيع، فالحمد والشكر لمن هزم الأحزاب وحده، فقد كانت معركة غير متكافئة عدداً واستعداداً، لكن المؤمن عندما يفعل الأسباب، ثم يتوجه بها نحو الله تتحول النتائج إلى أعياد...

ها هو ﷺ يبشر أصحابه بعد انتهاء المعركة بنهاية عصر وبداية آخر.. يبشرهم ﷺ بانهيار هيبة قريش، وانكسار حربتها.. يبشرهم بأن:

---

(١) الكراع يعني الخيل والخف الإبل.

(٢) أي أن بني قريظة خانت قريشاً وورطتهم بعد أن دعتهم للحرب ووعدتهم بالمشاركة.

(٣) أي بردت.

(٤) يا كثير النوم.. يمازحه ﷺ.

(٥) صحيح رواه مسلم (الجهاد - غزوة الخندق) واما بين الأقواس الصغيرة ليست لمسلم إنما هي حسنة رواها ابن إسحاق بسند يحتمل الانقطاع بين حذيفة ومحمد بن كعب القرظي وهو تابعي كبير أدرك علياً وروى عنه ابن هشام - ٣-١٣٩ ويقويه ما عند البيهقي ٣-٤٥٠ وفي سنده موسى بن أبي المختار وهو يحتاج إلى توثيق الجرح والتعديل ٨-١٦٤.

(٦) حديث صحيح رواه البخاري (١٠٣٥) ومسلم (الاستسقاء).

(٧) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٤) ومسلم (الذكر - الدعاء).

الخندق مقبرة لمشركي قريش

فليس هناك بعد اليوم هجوم أو حصار من قريش.. سمع ذلك أحد الصحابة الذين شاركوا في الخندق، واسمه سليمان بن صرد رضي الله عنه فقال: (سمعت النبي ﷺ يقول حين أجلى الأحزاب عنه: الآن نغزوهم ولا يغزوننا، نحن نسير إليهم)[1].

كان ﷺ في الفترة السابقة حريصاً على وحدة المدينة، وتماسكها، وتجذير الإيمان والتوحيد والحب فيها، والتأسيس أهم متطلبات الدولة، فالتهور لاطائل من ورائه، والمغامرات الطائشة ليست من أعمال من يريدون بناء أمة عظيمة. أما قريش فكانت حريصة على تقويض ذلك كله.. حاولت في معركة بدر بقيادة الطاغوت أبي جهل وفشلت، وقادها للثأر أبو سفيان في معركة أحد، فلم تنل ما حملت به، وارتعدت فرائصها عن المواجهة في بدر الثانية، لذا تآمرت مع يهود وبقية الوثنيين، لكنها فشلت فشلا ذريعاً، وها هي تعود محطمة بعد معركة الخندق.. هي ومن ساندها من الأحزاب.. تعود إلى مكة وقد تفتتت هيبتها، وانكسرت شوكتها، ويعود ﷺ وأصحابه إلى بيوتهم بعد أن انتصروا.. رجعوا ليغتسلوا من عناء أيام قاسية، ومن غبار ريح عاتية.

النبي ﷺ يضع سلاحه

يضع سلاحه ويغتسل، ولكن شيئاً حدث جعله يلبس أداة الحرب مرة أخرى، ففي بيت عائشة رضي الله عنها كان ﷺ يغتسل من المعركة ويتطيب، ولكن أمراً من السماء نزل، وأمره بحمل السلاح..

أمرٌ تقول عنه عائشة: (لما رجع النبي ﷺ من الخندق ووضع السلاح واغتسل، أتاه جبريل «وهو ينفض رأسه من الغبار» فقال: قد وضعت السلاح! والله ما وضعناه، فأخرج إليهم. قال: إلى أين؟)[2].

إلى أين سيحمل ﷺ سلاحه

سأل النبي ﷺ جبريل فـ (قال: إلى أين؟ قال: ها هنا. وأشار إلى بني قريظة. فخرج النبي ﷺ إليهم)[3] وقبل أن يتحرك جيش النبي ﷺ.. تحرك موكب جبريل في

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٠).
(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٧) والزيادة لمسلم.
(٣) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٧).

طرقـات المدينة، ومر بطريق يقال له «زقاق بني غنم» لم يرهم أحد، لكن أنسـاً رضي الله عنه رأى غباراً في ذلك الزقاق.. غباراً أثاره موكب جبريل.

يقول أنس: (كأني أنظر إلى الغبار سـاطعاً في زقاق بني غنم، موكب جبريل حين سار رسول الله ﷺ إلى بني قريظة)[1].

النبي ﷺ ينطلق إلى بني قريظة

ولكن قبل ذلك أرسل مجموعة من أصحابه نحوهم، وكان أحد هؤلاء ذلك الشاب عبـد الله بن عمر بن الخطـاب رضي الله عنه الذي يقول: (قال النبي ﷺ لنا لما رجع من الأحزاب: لا يصلين أحد العصر إلا في بني قريظة.

فأدرك بعضهم العصر في الطريق، وقال بعضهم: «لا نصلي إلا حيث أمرنا رسـول الله ﷺ وإن فاتنا الوقت» لا نصلي حتى نأتيها. وقال بعضهم: بل نصلي، لم يرد منا ذلك. فذكـر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنف أحداً منهم)[2] ثم لحق بهم ﷺ حتى وصل إلى حصنهم، ولـم يكـن ذلك الحصار مهماً إلى هذه الدرجة عنده وعنـد أصحابه.. لم يكن ﷺ على عجلـة من أمره في حصارهم، فقد ذهب إلى بيته يريد الاغتسـال والتطيب، ولكن الله سـبحانه أخرجه من بيته إليهم، فالأمر خطير جـداً، ويبدو أن عقاب الله لخيانات بني إسرائيل لم ينته، وخياناتهم لم تنته. فما فعله بنو قريظة أخبث مما فعله الأحزاب.

لـم يكن بين النبي ﷺ وبين قريش وغطفان معاهـدة عدم اعتداء، بل كان هناك عداوة، أما قريظة فبينهم وبين النبي ﷺ عهد مكتوب، ووثيقة موقع عليها، وجوار يجب حفظه، ودولة مشـتركة، ومواطنة لها حقوق وعليها واجبات، وقد تمتعت يهود بحمايته عليه السـلام. لكن قريظة نسفت ذلك كله، وخانت للمرة الثانية وتآمرت، وطعنت من الخلـف، وإذا كان الأمر كذلك فلا غرابة أن يخرج الله نبيه إليهم بهذه السـرعة، وأن يأمر ﷺ بعدم الصلاة إلا عند حصونهم.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١١٨).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٩٤٦) والزيادة لمسلم.

إن ما فعله اليهود سيتكرر لأن محمداً ﷺ ليس من بني إسرائيل، وما داموا قد قتلوا أنبياء من بني إسرائيل، فلا مانع من تكرار التجربة مع نبي ليس منهم.. ستتلمظ الخيانة أفعى داخل كل حصن تسكنه يهود، ولن يعرف النبي ﷺ والمسلمون طعم الراحة والأمن ما داموا فيها.

وصل جيش الإسلام إلى هناك، فتزلزلت الحصون، وارتعدت الأوصال، وبدأ الخوف والضجيج والتلاوم بين اليهود، وشرب بنو قريظة من الكأس الذي سقوه للمؤمنين.. شاركوا في حصار المدينة، وها هم يعيشون المأساة نفسها.

النبي ﷺ يحاصرهم بالسيوف والشعر

طوق جيش الإسلام حصن بني قريظة، ووصل في معية النبي ﷺ شاعره الكبير حسان بن ثابت، فهتف به ﷺ، وهتف بشعره فقد (قال النبي ﷺ لحسان يوم قريظة: أهجم أو هاجهم وجبريل معك)[1] فهجاهم حسان، ورماهم بأبيات كالرماح.. لابد أنه وصفهم بالخيانة والتآمر والغدر، وكفى بتلك الصفات أن تهزم صاحبها. لمع شعر حسان ولمعت السيوف، فصاحت قريظة تسأل النبي ﷺ عن مخرج لهذه الورطة وهذا الحصار..؟

قريظة تبحث عن مخرج

عرض ﷺ عليهم أمرين بدلا من اقتحام حصونهم:

الأمر الأول: أن يسلموا، فإن أبوا ذلك فعليهم بـ:

الأمر الثاني: وهو النزول تحت حكمه ﷺ، وأن يرضوا بعقوبة الخيانة التي سينزلها بهم، وهو لم يحددها ﷺ حتى الآن، وهي عقوبة يتوقع اليهود أن تكون شديدة تناسب حجم نذالتهم وغدرهم، فليست هذه هي الأولى في سجل خياناتهم، فقد (حاربت قريظة والنضير فأجلى ﷺ بني النضير، وأقر قريظة ومن عليهم)[2] وأعطاهم الأمان، وعفا عنهم وسامحهم، ولكنه أخذ عليهم عهداً مكتوباً.. وثيقةً بعدم الخيانة والتآمر

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٣).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨).

والغـــدر. كتب بينه وبينهم وثيقة وقعوا عليها بإرادتهـــم ودون إكراه لكنهم يهود، لكنهم عـــادوا فنقضـــوا كل ما كتبوا، وها هم أمام حصار خانق.. أمـــام خيارين لا ثالث لهما إلا المـــوت، وفجأة دوت صرخة زعيم مـــن زعماء يهود.. صرخة تصيح بأحد الصحابة واسمه «أبو لبابة» رضي الله عنه:

أبو لبابة يثير الرعب في نفوس يهود

بعدما (قذف الله في قلوبهم الرعب، واشتد عليهم الحصار، فصرخوا بأبي لبابة بـــن عبـــد المنذر، وكانوا حلفاء الأنصار «فقال أبو لبابة: لا آتيهم حتى يأذن لي رســـول الله ﷺ. فقال له رسول الله ﷺ: قد أذنت لك» فأتاهم أبو لبابة فبكوا إليه، وقالوا: يا أبا لبابة، ماذا ترى، وماذا تأمرنا فإنه لا طاقة لنا بالقتال..؟ فأشار أبو لبابة بيده إلى حلقه. وأمرَّ عليه أصابعه، يريهم أنما يراد بهم القتل)[1]

فـــازدادوا رعباً إلى رعبهـــم، وزلزلهم الهلع والخوف، وأدركـــوا فداحة جرائمهم، فالمجرم الموغل في الإجرام لا يدرك شناعة جرائمه إلا إذا نزل به العقاب.

مصير شنيع يفتح أذرعه القاسية لليهود، ويستشير اليهود بعضهم بعضاً، فيلمحون في الأفق ســـراباً عله يكون ماءً، فينطلق الصراخ والمناشـــدة الخائنة من الحصن مرة أخرى.. فما الذي تريده يهود هذه المرة؟

قريظة تطلب خياراً ثالثاً

اقترح اليهود الخائفون حلاً أخيراً لورطتهم التي رســـموها بأنفســـهم.. اقترحوا على النبي ﷺ حلاً ثالثاً، فهم لا يطيقون الحرب، ولا النزول على حكم النبي ﷺ بعدما مرر أبو لبابة أصابعه على حلقه، وهم أيضاً مازالوا يعاندون ويرفضون الإســـلام رغم اقتناعهم بأن محمداً ﷺ نبي مرسل.

---

(١) حديث حســـن عدا ما بين الأقواس الصغيرة، رواه ابن إســـحاق وهو في مغازي موسى عن الزهري وعن عروة مرسلاً، سيرة ابن كثير ٢-٢٢٩ وله شاهد عند أحمد من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده قال ابن كثير: إســـناده جيد. والأصوب أن فيه عمرو بن علقمة الوقاصي وهو يحتاج إلى توثيق لذلك قال الحافظ في التقريب: مقبول، أي عند المتابعة والشواهد. انظر سيرة ابن كثير ٣-٢٣٧.

لقد طلبوا منه أن يجعل حكمهم بيد حليفهم السابق.. الصحابي الجريح وسيد وأسد الأنصار (سعد بن معاذ) مهما كان هذا الحكم.

قبل ﷺ هذا الاقتراح، فأرسل في طلب سعد بن معاذ وإحضاره من خيمته داخل المسجد النبوي حيث يتم تمريضه هناك. وصل رسول رسول الله ﷺ إلى سعد، وأخبره الخبر، فأدرك سعد أن دعوته قد استجيبت، عندما ناشد ربه والدماء تشخب من عروقه فقال: (اللهم لا تخرج نفسي حتى تقر عيني من بني قريظة، فاستمسك عرقه، فما قطر قطرة)[1]

وبقي سعد صابراً في خيمته.. محتسباً ألم جرحه عند الله، حتى أتاه الخبر، وأتاه مبعوث رسول الله ﷺ يطلبه للحكم في قضية خيانة بني قريظة.

حُمل سعد على حمار وتوجه به المبعوث إلى بني قريظة، وقبل أن يصل سعد.. كان هناك اضطراب وضجيج وحركة داخل الحصن، كان هناك لغط بين اليهود، هل تشاجروا..؟

ربما.. لا أحد يعلم، وفجأة فتح باب الحصن.. فخرج منه رجال ونساء.. إنهم يتوجهون الآن نحو النبي ﷺ.

من الذين خرجوا من حصن بني قريظة

إنهم رجال ونساء يريدون الإسلام والنجاة في الدنيا والآخرة.. هؤلاء (بعضهم لحقوا بالنبي ﷺ، فآمنهم وأسلموا)[2]

وكان من بين هؤلاء ثلاثة شباب ليسوا من بني قريظة، لكنهم دخلوا حصونهم ودينهم منذ زمن هرباً من الشرك، لعل الله أن يهديهم على يد ذلك النبي المنتظر الذي تنتظره اليهود.

يروي لنا قصة هؤلاء الثلاثة رجل شاهدهم وسمعهم وعاش معهم، ثم خرج معهم من الحصن وهو يحدث من حوله.. (شيخ من بني قريظة قال: هل تدري عما كان

---

(١) سنده صحيح رواه أحمد ٣ -٣٥٠ وقد مر معنا تخريجه تحت عنوان خيانة ثالثة.

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤٠٢٨).

إســـلام (أســـيد، وثعلبة ابني سعية، وأســـد بن عبيد) نفر من هذل، لم يكونوا من بني قريظة ولا النضير، كانوا فوق ذاك؟

فقلت: لا. قال: فإنه قدم علينا رجل من الشام، من اليهود، يقال له: «ابن الهيبان» فأقام عندنا، والله ما رأينا رجلاً قط يصلي الخمس خيراً منه، فقدم علينا قبل مبعث رســـول الله ﷺ بسنتين، فكنا إذا قحطنا، وقل علينا المطر نقول: يا ابن الهيبان، اخرج فاستسق لنا. فيقول: لا والله، حتى تقدموا أمام مخرجكم صدقة. فنقول: كم؟ فيقول: صاعاً من تمر أو مدين من شعير.

فنخرجه، ثم يخرج إلى ظاهر حرتنا، ونحن معه، فيستســـقي، فوالله ما يقوم من مجلســـه حتى تمر الشـــعاب. قد فعل ذلك غير مرة ولا مرتـــين، ولا ثلاثة. فحضرته الوفـــاة، واجتمعنا إليه. فقال: يا معشـــر اليهود، ما ترونـــه أخرجني من أرض الخمر والخمير[1]، إلى أرض البؤس والجوع[2]؟ قالوا: أنت أعلم.

قال: إنما أخرجني أتوقع[3] خروج نبي قد أظل زمانه، هذه البلاد مهاجره، فأتبعه، فلا تســـبقن إليه إذا خرج يا معشـــر يهود، فإنه يبعث بســـفك الدماء، وسبي الذراري والنساء ممن يخالفه، فلا يمنعكم ذلك منه.

ثم مات. فلما كانت الليلة التي فتحت فيها قريظة، قال أولئك الفتية، وكانوا شباباً أحداثاً: يا معشـــر يهود، والله إنه للذي ذكر لكم ابن الهيبان. فقالوا: ما هو به. قالوا: بلى واللـــه، إنه لصفته. ثم نزلوا فأســـلموا، وأحرزوا أموالهم وأولادهـــم وأهاليهم)[4] وانتهى كل شـــيء بالنسبة لهم.. لم يعودوا أعداءً، ولم يجدوا من يعاتبهم أو يلومهم، أو حتى يذكرهم بمواقفهم اللئيمة.. انتهى كل شيء فالإسلام يمحو ما قبله.

---

(١) أي أرض الشام حيث الأنهار والأشجار والخمر.

(٢) أي المدينة قبل أن يدعو لها النبي عليه السلام بالبركة.

(٣) أي أنتظر وأتربص وآمل.

(٤) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ومن طريقه البيهقي ٢-٨٠: حدثني عاصم بن عمر بن قتادة عن شيخ من بني قريظة. عاصم تابعي ثقة عالم بالمغازي مر معنا كثيرا، وشـــيخه صحابي أدرك ذلك الحدث وأســـلم وقد يكون عطية القرظي رضي الله عنه.

أدرك هــؤلاء أن دين الله أرحب من أن يحبس في حصن من حصون يهود، وأعظم من أن تســتقل به وتحتكره قبيلة بني إســرائيل.. خرج هؤلاء، فوجدوا أذرعاً مفتوحة وقلوباً بيضاء فسيحة، ووجدوا رسول الله والإسلام، وأما من أغلقوا على أنفسهم أبواب الحصن والعناد والتعصب، فقد وصل إليهم سعد بن معاذ كما طلبوا.. وصل سعد على حماره.. قطع تلك المسافة ليرضي الله ورسوله، ولتقر عينه من بني قريظة الخونة.

وصول سعد إلى حصن بني قريظة

كان وصــول ابن معاذ إلــى ذلك المكان يحبس الأنفاس.. شــاهده النبي ﷺ وهو قادم، وكان ﷺ في مسجده المؤقت قرب الحصن، فسر لمرآه، وهتف بأصحابه: (قوموا لسيدكم)[1]

يقول أبو سعيد الخدري رضي الله عنه: (نزل أهل قريظة على حكم سعد بن معاذ، فأرســل رســول الله ﷺ إلى ســعد، فأتى على حمار، فلما دنا قريباً من المسجد، قال رسول الله ﷺ: قوموا لسيدكم، أو لخيركم، ثم قال: إن هؤلاء نزلوا على حكمك)[2]

كل هذا يحدث ومازال أمام اليهود فرصة للحياة بالإســلام، لكنه الحســد. كيف يخضع بنو إســرائيل لعربي..؟! وكأن الإســلام والتوحيد جاءا من أجل العرب، لا من أجل الدنيا كلها، لذا اكتفت يهود بمناشــدة ســعد والتوسل إليه، لا مناشدة الله، فماذا قال سعد يا عائشة..؟

تقول رضي الله عنها إن اليهود: (قالوا: ننزل على حكم سعد بن معاذ، فأتي به على حمار عليه إكاف من ليف قد حمل عليه، وحف به قومه «فقالوا: يا أبا عمرو، حلفاؤك، ومواليك، وأهل النكاية، ومن قد علمت -ولا يرجع إليهم شيئاً ولا يلتفت إليهم- حتى دنا من دورهم، التفت إلى قومه فقال: قد آن لي أن لا أبالي في الله لومة لائم».

قال أبو ســعيد: فلما طلع قال رســول الله ﷺ: قوموا إلى سيدكم «فأنزلوه. قال عمر: سيدنا الله. قال: أنزلوه» قال رسول الله ﷺ: احكم فيهم.

---

(١) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢١).

(٢) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢١).

فقال سعد: فإني أحكم فيهم أن تقتل مقاتلهم، وتسبى ذراريهم، وتقسم أموالهم.

فقال رسول الله ﷺ: لقد حكمت فيهم بحكم الله [من فوق سبع سماوات])[1]

لقد حكم سيدنا سعد بـ (حكم الله فيهم وكانوا أربعمائة)[2] مقاتل.. خانوا وتربصوا بالمؤمنين الدوائر، وتعاونوا مع الأعداء لاجتثاث دولة الإسلام ونبي الإسلام.

أخذ هؤلاء على حدة، وأخذ الأطفال والنساء على حدة، أما من أسلم فقد عاد إلى الحصن.. إلى أهله وأولاده، وإلى ماله الذي لم يمس، ثم توجه بهم المسلمون نحو سوق المدينة، وأدخل النساء والأطفال بيوت النبي ﷺ وبيوت أصحابه، وكانت إحدى نساء اليهود قد ارتكبت جريمة لم يعرف حتى الآن من الذي فعلها، والمرأة الآن موجودة عند عائشة.. تتظاهر بالمرح والسرور، وتضحك ضحكاً أثار استغراب عائشة رضي الله عنها ودهشتها في مثل هذا الظرف الذي تكون فيه المرأة مثقلة بالحزن والنواح.. غارقة بدموعها على قومها.

جمع الرجال بعيداً عن أطفالهم ونسائهم، وتم تنفيذ حكم سعد فيهم، وقرت عينه من بني قريظة، وشفى غليله من غدرهم وخيانتهم، وفجأة، وأثناء تنفيذ الحكم.. صاح صائح ينادي باسم تلك المرأة الضحوك. لقد اكتشف سرها، فماذا ستفعل، وهي:

المرأة الوحيدة التي ستقتل من بني قريظة

تقول عائشة عن تلك المرأة الغريبة: (لم يقتل من نسائهم «تعني بني قريظة» إلا امرأة واحدة، والله إنها لعندي تحدث معي، وتضحك ظهراً وبطناً، ورسول الله ﷺ يقتل رجالها في السوق، إذ هتف هاتف باسمها: أين فلانة؟ قالت: أنا والله.

قلت لها: ويلك، مالك؟ قالت: أُقْتَلُ.

---

(١) حديث حسن عدا ما بين الأقواس الصغيرة وله شواهد صحيحة، وهو حديث عائشة الذي حسنه ابن كثير من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده عنها. وأبوه يحتاج إلى توثيق، والحديث حسن بما عند البخاري وأحمد وغيرهما والزيادة بين المعقوفين حسنة عند ابن سعد ٣-٤٢٦ من طريق التمار وهو حسن الحديث ولها شاهد مرسل عند ابن إسحاق من طريق محمد بن عمرو بن علقمة عن أبيه عن جده.

(٢) سنده صحيح مر معنا تحت عنوان (خيانة ثالثة) من رواية الليث عند أحمد (٣/٣٥٠).

قلت: ولِمَ؟ قالت: لحدث أحدثته.

فانطُلِقَ بها، فضرب عنقها، فكانت عائشة تقول: والله ما أنسى عجباً منها، طيب نفسها، وكثرة ضحكها، وقد عرفت أنها تقتل)[1]

هذا هو حكم الله في هؤلاء اليهود الذين كادوا ينشرون الموت والرعب في كل شبر في المدينة لو انتصر الأحزاب.. حكم عاجل وحازم وحاسم.. من أجله أخرج الله نبيه من بيته.. من استراحته، وأمره على الفور بالخروج لتنفيذ هذا الحكم العادل.

قد يتعاطف أحد مع يهود بني قريظة ويقول: لماذا هذا الحزم مع اليهود.. لماذا كل هذه الشدة..؟

ولا أجد جواباً أعظم من أنه حكم الله وحده لا شريك له، لكن هناك إضافة يسيرة وجدتها في توراة القوم.. تخول اليهود أن يفعلوا ما يشاءون بأعدائهم متى بدرت منهم إساءة لليهود، فكيف إذا كانوا في نظرهم كفاراً كالمسلمين.. هذه الإضافة تحكم بها توراتهم في:

قصة دينة بنت يعقوب

تقول القصة إن يعقوب عليه السلام وأبناءه سكنوا مدينة «شكيم» واشتروا أراضي لهم، فخرجت دينة ذات يوم تتمشى، فرآها ابن الملك «حمور» واسمه «شكيم» فاغتصبها، ثم طلب من أبيه أن يخطبها، فتكدر يعقوب عليه السلام لما حدث لابنته وسكت حتى جاء أبناؤه، وقال لهم: إن الملك عرض عليه الإقامة الدائمة والمصاهرة بين العائلتين، فتظاهر الأبناء، وهم أعظم أنبياء اليهود، بالموافقة، لكن اشترطوا أن يختتن كل من أراد الزواج منهم، ولما اختتن الملك وابنه ورجال شعبه، وأثناء فترة آلام الختان هجم بنو يعقوب وغدروا بالملك رغم العهود والمواثيق، وقتلوا كل ذكر، ثم نهبوا حميرهم وبقرهم وغنمهم وجميع ثروتهم وكل أطفالهم ونسائهم وكل ما في بيوتهم[2]

---

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق ابن هشام ٣-١٤٧ وأبو داود (٢٦٧١) وغيره من طريق ابن إسحاق.. واللفظ لابن هشام والزيادة عند أبي داود: حدثني محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة عن عائشة.. ومحمد ثقة، وشيخه تابعي ثقة معروف.

(٢) انظر تفاصيل القصة في (التوراة - التكوين - ٣٤).

إذا كانت الخيانة شريعتهم، وإذا كان هذا ما ينسبونه لأعظم أنبياء بني إسرائيل، والذين إليهم ينسب كل اليهود.. إذا كان الغدر هو مبدؤهم، كما يقول كاتب التوراة، فكيف بالرعاع والحاقدين من بني قريظة..؟! ما حجم الكارثة التي سيرتكبها اليهود في المدينة..؟

لا أحد يعلم إلا الله شناعة ما سيحدث، لكن الواقع يحدثنا، ومجازر اليهود اليومية كفيلة بالإجابة، ولا شيء يردع تهور اليهود ودسائسهم سوى السيف والقوة، وها هو السيف يبطش بهم في سوق المدينة، وها هي المرأة الخائنة تقتل في سوق المدينة، ويقتل رجال بني قريظة ومحاربوها، وقد كان هناك حدٌ للقادر على الحرب.. يعرف به ويميز.. يذكره لنا أحد الذين نجوا من ذلك الحكم، لأنه لم يبلغ ذلك الحد.. إنه فتى صغير يدعى عطية القرظي، وقد أسلم فيما بعد وأصبح من صحابة رسول الله ﷺ رضي الله عنهم.

يقول عطية: (كنت في سبي بني قريظة، فأمر رسول الله ﷺ بمن أنبت أن يقتل، فكنت فيمن لم ينبت فتركت)[1]

وهكذا أهال الإسلام التراب على جسد الخيانة القرظية المتعفن، وأراح العالم منه، وبقي من بني قريظة من اختار الحياة والإسلام والهواء النقي من كل خبث ودسيسة، فعاشوا أحراراً بالإسلام، إلا من أبى.

رأى المنافقون السيوف تجتث رقاب أصدقائهم اليهود.. الذين طالما اتخذوهم كهفاً لأصنامهم ونفاقهم، فلم يطق أحد شعرائهم مشهد انهيار رفاق التآمر والخيانة فقال أبياتاً تعبر عن:

موقف المنافقين مما حدث لقريظة

أبيات من الشعر تلقي باللوم على سعد بن معاذ، الذي كان شديداً في حكمه عليهم، وما علم هؤلاء أن الله سبحانه هو الذي أمر نبيه ببني قريظة، في الوقت

(١) سنده صحيح رواه ابن إسحاق والبيهقي ٤-٢٥ من طريق: شعبة بن الحجاج، عن عبد الملك بن عمير عن عطية. شعبة لا يسأل عنه وشيخه تابعي ثقة فقيه التقريب ٣٦٤.

الذي كان فيه ﷺ يضع سلاحه ويغتسل، ويتهيأ لأخذ بعض الراحة من عناء حرب شاقة وقاسية، وتجاهل أولئك المنافقون أن مصيرهم سيكون أسود من ليلهم لو انتصر الأحزاب واحتلوا المدينة، لكن العملاء دائما ضحايا للغباء.

ولم ينس ذلك الشاعر المنافق مدح زعيمه عبد الله بن أبي بن سلول، الذي كان مستعدا للتحالف مع كل من على وجه الأرض إلا محمداً ﷺ وأصحابه، وفي مدحه لابن سلول سب لسعد بن معاذ، لأن ابن معاذ لم تأخذه في الله لومة لائم أو بيت شاعر.

أما عبد الله بن أبي بن سلول فقد دافع عن يهود بني قينقاع عندما غدروا بالمسلمين، ووقف معهم، وكلم النبي ﷺ فيهم ورجاه العفو عنهم، فأبقاهم ﷺ وعفا عنهم من أجله، وأمهلهم، وعن هذين الموقفين المتناقضين يقول ذلك الشاعر:

(ألا يا سعد سعد بني معاذ ... فما فعلت قريظة والنضير
لعمرك إن سعد بني معاذ ... غداة تحملوا لهو الصبور
تركتم قدركم لا شيء فيها ... وقدر القوم حامية تفور
وقد قال الكريم أبو حباب ... أقيموا قيننقاع ولا تسيروا
وقد كانوا ببلدتهم ثقالا ... كما ثقلت بميطان الصخور[1]

وسواءً كانوا ثقالاً كالجبال على أرض ميطان، أو كانوا أثقل من ذلك، فقد اجتثوا من جذورهم المتعفنة، وطهر الموحدون تلك الأرض منهم ومن لؤمهم وغدرهم، وإذا كان لهم من لوم، فليلوموا أنفسهم.. هم من اختار حكم سعد، فكان لهم ما أرادوا.

أما سعد بن معاذ فقد توجه إلى المسجد.. إلى خيمته المنصوبة فيه، ولما استقر فيها توجه بدعاء كله شوق إلى الله.. دعاء يفيض بسر المؤمن إذا تألق بالإيمان، فسعد حكم على مقاتلي قريظة بالموت لا ليعيش ويتمتع بنسائهم وأموالهم، بل ليخلص مدينته منهم، أما هو فقد عشق الجنة، وتمنى على الله الجنة بجرحه ذلك.

ما هذا..؟ إنه لم يسأل الله ولا رسوله شيئاً من أرض قريظة، ولا أموالهم ولا نخيلهم ولا نسائهم، إنه يسأل الله أن يقبض روحه بجرحه حتى يكون شهيداً من شهداء الخندق، أما ما عدا ذاك فحطام، وسعد أكبر من الحطام.

---

(١) جزء من حديث صحيح رواه مسلم -المبادرة بالغزو.

أراد الشهادة لأنه ما أسلم وترك الأوثان إلا من أجل تلك العوالم الساحرة المرفرفة في الجنة.. فما هو

دعاء سعد بعد قريظة

تقول عائشـــة، وقد احتفظت رضي الله عنها في ذاكرتها لســـعد بالكثير الجميل، فهو الذي شهر سيفه دفاعاً عنها وعن عرضها في قصة الإفك الآثمة.

تقول رضي الله عنها: (إن ســـعداً كان قد تحجر كلمه[1] للبرء، فدعا ســـعد فقال: اللهم إنك تعلم أنه ليس أحد أحب إلي أن أجاهد فيك من قوم كذبوا رسولك وأخرجوه، اللهم فإني أظن أنك قد وضعت الحرب بيننا وبينهم، فإن كان من حرب قريش شـــيء، فأبقنـــي لهـــم حتى أجاهدهم فيـــك، وإن كنت قد وضعت الحرب فيمـــا بيننا وبينهم، فافجرها واجعل موتتي فيها.

ففجر من ليلته فلم يرعهم[2] ومعهم في المسجد أهل خيمة من بني غفار إلا الدم يسيل إليهم.

فقالوا: يا أهل الخيمة، ما هذا الدم الذي يأتينا من قبلكم؟

فإذا سعد جرحه يغذو[3] دماً)[4]

ولما (ثقل حولوه عند امرأة يقال لها «رفيدة»، وكانت تداوي الجرحى، فكان النبي ﷺ إذا مر به يقول: كيف أمسيت؟

وإذا أصبح قال: كيف أصبحت؟ فيخبره.

حتى كانت الليلة التي نقله قومه فيها، فثقل، فاحتملوه، إلى بني عبد الأشهل إلى منازلهم، وجاء رسول الله ﷺ كما كان يسأل عنه، وقالوا: قد انطلقوا به.

---

(١) جرحه.

(٢) يفزعهم.

(٣) يسيل بشكل متواصل.

(٤) حديث صحيح رواه البخاري (٤١٢٢) وتابع شيخه ابن سعد (٨٤٩/٣) واللفظ له.

فخرج رسول الله ﷺ، وخرجنا معه، فأسرع المشي حتى تقطعت شسوع[1] نعالنا، وسقطت أرديتنا عن أعناقنا، فشكا ذلك إليه أصحابه: يا رسول الله، أتعبتنا في المشي؟

فقال ﷺ: إني أخاف أن تسبقنا الملائكة إليه فتغسله كما غسلت حنظلة. فانتهى رسول الله ﷺ إلى البيت وهو يغسل، وأمه تبكيه وهي تقول:

ويل أم سعد سعداً حزامة وجدّا

فقال رسول الله ﷺ: كل نائحة تكذب إلا أم سعد.

ثم خرج به. يقول له القوم أو من شاء منهم: يا رسول الله، ما حملنا ميتاً أخف علينا من سعد. فقال ﷺ: ما يمنعكم من أن يخف عليكم، وقد هبط من الملائكة كذا وكذا، وقد سمى عدة كثيرة لم أحفظها، ولم يهبطوا قط قبل يومهم قد حملوه معكم)[2]

توجه ﷺ بصاحبه نحو البقع، فسبقه أبو سعيد الخدري وبعض الصحابة نحو البقيع لحفر القبر، وإعداد اللبنات والماء طمعاً في ذلك الأجر العظيم الذي قال عنه ﷺ: «من حفر له[3] فأجنه، أجري عليه كأجر مسكن أسكنه إياه إلى يوم القيامة»[4].

وصل النبي ﷺ وأصحابه إلى البقيع، كما قال أبو سعيد: (طلع علينا رسول الله ﷺ وقد فرغنا من حفرته، ووضعنا اللبن والماء عند القبر، وحفرنا له عند دار عقيل اليوم، وطلع رسول الله ﷺ فوضعه عند قبره، ثم صلى عليه، فلقد رأيت من الناس ما ملأ البقيع)[5].

---

(١) سيور النعال التي تمسك النعال بالأصابع.

(٢) سنده حسن رواه ابن سعد ٣-٤٢٧ أخبرنا الفضل بن دكين، أخبرنا عبد الرحمن بن سليمان بن الغسيل عن عاصم بن عمر بن قتادة عن محمود بن لبيد. محمود صحابي وتلميذه ثقة عالم بالمغازي، التقريب ٢٨٦ وعبد الرحمن ثقة من رجال الشيخين، وجرحه غير مفسر، اضطرب فيه النسائي فقال: ليس بالقوي، ومرة: لا بأس به، ومرة: ثقة.. أما توثيقه فمعتبر، قال ابن معين وأبو زرعة والدارقطني ثقة، التهذيب ٦-١٩٠.

(٣) أي حفر لأخيه المسلم قبراً.

(٤) سنده قوي رواه البيهقي في الشعب والسنن ٣ - ٣٩٥ من ثلاث طرق أحدها قوي عن عبد الله بن يزيد المقرئ ثنا سعيد بن أبي أيوب حدثني شرحبيل بن شريك عن علي بن رباح اللخمي قال سمعت أبا رافع وهوؤلاء كلهم ثقات، عدا شرحبيل فهو صدوق من رجال مسلم ٢٦٥ وصححه الإمام الألباني في الجنائز (٥١).

(٥) سنده صحيح رواه ابن سعد ٣-٤٢٤ أخبرنا عفان ويحيى وأبو الوليد الطيالسي، أخبرنا شعبة أنبأني سعد بن إبراهيم: سمعت أبا أمامة بن سهل بن حنيف يحدث عن أبي سعيد.. شعبة إمام وسعد تابعي ثقة من رجال الشيخين (التقريب - ٢٣٠) وأبو أمامة صحابي.

ولئن امتـــلأ البقيع بالناس، فلقد زاحمهم فيه آخرون ليســـوا من الناس.. جاؤوا كرامة لهذا المسافر الحبيب.. يشهدون توديعه والصلاة عليه ودفنه.. هبط من السماء سبعون ألف ملك فكانت الدنيا عرشاً يهتز، وسماء مفتوحة، وملائكة كالمطر.

كل ذلك حدث من أجل الفارس الجســـور، والحازم الـــذي لا تأخذه في الله لومة لائم، والمؤمن الطهور المسافر بالقلوب

(سعد بن معاذ الأوسي الأنصاري)

ها هو جابر الأنصاري يرى ويشـــاهد ويروي فيقول: (قال رسول الله ﷺ وجنازة سعد بن معاذ بين أيديهم: اهتز لها عرش الرحمن)[1] (اهتز عرش الرحمن لموت سعد ابن معاذ)[2].

أمـــا بعد دفنه رضي اللـــه عنه، فقد وقف ﷺ يحدث أصحابـــه عن هذا الراقد، الذي نحت الحب في قلوب المؤمنين، ونحت العدل على جدران قريظة، وقبل ذلك نحت الخوف في ضلوع أبي جهل وأمية.. وقف النبي عليه الســـلام على قبره يحدث الدنيا وصحابته ويقول:

(هذا العبد «الصالح» الذي تحرك له العرش، وفتحت له أبواب السموات، وشهده سبعون ألفاً من الملائكة، لم ينزلوا الأرض قبل ذلك، لقد ضم ضمة ثم فرج عنه)[3] وهي ليست ضمة عذاب و(لو نجا أحد من ضمة القبر لنجا منها سعد)[4]

---

(١) حديث صحيح رواه مسلم - فضائل سعد بن معاذ.

(٢) حديث صحيح رواه مسلم - فضائل سعد بن معاذ.

(٣) سنده صحيح كالذهب رواه ابن سعد ٣-٣٤٠ والنسائي ٤-١٠٠ من طريق عبد الله بن أدريس، حدثنا عبيد الله عن نافع عن ابن عمر. نافع ثقة ثبت فقيه وعبيد الله ثقة ثبت قدمه أحمد على مالك في نافع، وابن إدريس ثقة فقيه عابد من رجالهما ٢٩٥.

(٤) سنده صحيح رواه عقبة بن مكرم (سير أعلام النبلاء ١-٢٩١) حدثنا ابن أبي عدي، عن شعبة، عن سعد ابن إبراهيم عن نافع عن صفية بنت أبي عبيد عن عائشة. صفية تابعية ثقة (التقريب - ٧٤٩) ونافع مر معنـــا وســـعد بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عوف ثقة فاضـــل، التقريب ٢٣٠ وابن أبي عدي: محمد بن إبراهيم ثقة، التقريب ٤٦٥ .

وهي من الآلام التي تمر بالمؤمن وغيره مثل ألم خروج الروح، وألم القيام من القبر، وألـم الموقف والورود على النار، لكنها تخفف على المؤمن النقي، وتشـدد أحياناً حتى يتطهر من بقية ذنوبه، فينجو برحمة الله من النار أعاذنا الله منها.

ودع ﷺ سـعداً وبشر أحبابه بأنه من أهل الجنة، ثم انصرف وهو مثقل بالحزن، وانصرف الصحابة بقلوب حزينة وعيون تذرف الدموع على سعد، وذكريات سعد.

بكى المهاجرون والأنصار، وغمر الأوس حزن أسـود على سـيدهم، ومرت الأيام طويلة وثقيلة على أم سعد، وعلى أهل بيت سعد.. كان رضي الله عنه سيفاً لا يفل على الباطل.. في كل وقت، وفي كل مكان، ومن مثل سعد..؟

هو الذي سـافر إلـى مكة معتمراً، وهنـاك وحول الكعبة كاد يفتـك بأبي جهل، ولمـا حاول منعه أمية هدده بالموت.. يهـدد قادة مكة في عقر دارهم!! ويهددهم بقطع تجارتهم إن لم يتعقلوا ويدعوه وشأنه.

أما في بلده.. في المدينة فكان يهدد زعيم المنافقين بالموت دفاعاً عن عرض النبي ﷺ.. كان مسـتعداً للاجهاز على رأس النفاق عبد الله بن أبي بن سلول.. رضي من رضي وسخط من سخط.

هذا هو سـعد في مواجهته لجبهتي الشـرك والنفاق، أما فـي مواجهته لليهود، فقـد قال في قريظة كلمته.. كان رضي الله عنه يفعل ذلك لله وحده، ودفاعاً عن دينه ورسوله ﷺ، ودعوته التي يحاول المشركون والمنافقون واليهود القضاء عليها.

سـتة أعوام فقط من إنجازات سعد وولائه وبرائه لله.. ستة أعوام فقط اهتز لها العرش، فرحم الله سعداً ما أعظمه، ورضي عنه وأرضاه وحشرنا وإياه مع نبينا ﷺ.

سـافر سـعد إلى الجنة، لكنه ترك لليهود وغيرهم درسـاً، ولحق بسعد بن معاذ فـارس آخر، وعظيـم آخر.. لحق به المجاهـد العابد، الذي كاد ينسـى زوجته وماله والدنيا بأسـرها ليتفرغ للعبادة.. العبادة فقط.. مات الذي أعاده النبي ﷺ إلى سنته وزوجته، والذي كان في حياته دروس، وفي مماته دروس.